عبقرية التأليف العربي للدكتور كمال عرفات نبهان

أ. د. عبدالستار الحلوجي(*)

قليلة هى الأعمال التى تشد القارئ بموضوعها وبما تقدمه من فكر أصيل كتب بلاغة راقية. وقليلة هى المؤلفات التى تأسرك فلا تستطيع فكاكًا من سحرها وجمالها فى هذا الزمن الذى تعددت فيه مظاهر القبح فى القول والفعل معًا. فأمام فيض المؤلفات وفوضى النشر يجد الإنسان نفسه محاصرًا بغثاء كغثاء السيل، وقلما يظفر بعمل مبدع يثرى العقل والوجدان. وقد احتل جمال حمدان مكانته المرموقة فى دنيا الفكر والثقافة لأنه مفكر مبدع، ولأنه يصب حصاد فكره فى قوالب لغوية بديعة.

قليلون هم أمثال حمدان، وقليلة هى الكتب التى تطاول كتابه «شخصية مصر؛ دراسة فى عبقرية المكان». ومن الكتب التى تذكّر بجمال حمدان وكتابه هذا، كتاب صدر حديثًا بعنوان «عبقرية التأليفة العربى» للدكتور كمال عرفات نبهان. ولا يقتصر وجه الشبه بين الكتابين على وجود كلمة «العبقرية» فى العنوان، ولكن وجه الشبه الحقيقى هو ما فى الكتابين من أصالة وإبداع فى الفكر، ومن سيطرة رائعة على الموضوع في كل منهما، ومن أسلوب رائق بليغ يتمتع من المؤلفان.

ولقد كتبت د. ناريمان متولى عن الإبداع فى مجال المكتبات[1]، وحاولت أن تلتمس العناصر التى يمكن الاحتكام إليها لوصف كتاب أو مؤلف بأنه مبدع، واتخذت من غزارة الإنتاج مؤشرًا، وهو مؤشر فيه نظر، بل فيه شك كبير.

وقد افتتن كثير من المتخصصين فى علوم المكتبات بالدراسات الببليومترية أو القياسات الوراقية كما يحلو للبعض أن يسميها، وهذه الدراسات تقيس الكم ولا تقيس الكيف، ولا يخفى أن قيمة أى كتاب لا تقاس بحجمه ولا بعدد صفحاته، وإنما بما يقدمه من فكر أصيل، وأن أقدار المؤلفين لا تحدد بعدد ما ألّفوه من كتب وما نشروه من صفحات وإنما بما يمكن أن تضيفه تلك المؤلفات إلى رصيد المعرفة. وكثرة المؤلفات شىء، وأصالته وجودتها شىء آخر. وكثيرًا ما تكون هذه الكثرة على حساب الجودة، بل كثيرًا ما تكون نتيجة نقل وسطو على كتابات الآخرين وأفكارهم، أو ترجمة لمؤلفات أجنبية. وبعض المؤلفين المعاصرين يفعل ذلك بكل أسف. ومنطقهم يقوم على أن الكتاب لو طبع منه ألف نسخة فقط وقرأه ألف فرد فقط، فإن من بين هؤلاء جميعًا قلّة لا تتجاوز عشرة أو عشرين هي التى يمكن أن تكتشف هذا النقل، وأن تتعرف على

---

(١) أستاذ المكتبات - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

الأصل الأجنبى المترجم أو المنقول عنه، ويبقى تسعمائة وثمانون قارئًا يمكن أن يُفتنوا بما قرأوا، وأن يتصوروا أنهم أمام مؤلف عبقرى فذ. ولقد كان القدماء من الشجاعة بحيث سمُّوا هذا النوع من التأليف سرقة، وألّفوا كتبًا معروفة فى السرقات الأدبية.

ولكن ما الإبداع؟ وما العبقرية؟.

لقد ارتبط مفهوم العبقرية فى كل لغات البشر بقوى خفية، ويمسّ يشبه مسّ الجنون، فالعرب تخيلوا واديا تسكنه الجنّ أطلقوا عليه «وادى عبقرى» وتوهموا أن مَنْ يتمتع بشىء من الإلهام فقد مسّه شىء من الجن التى تسكن هذا الوادى. وكلمة genius فى اللغة الإنجليزية أيضًا لا تبعد كثيرًا عن هذا التصور ولا عن الجن Jinn. وعلماء النفي يعرِّفون العبقرية بأنها ومضات ذهنية كومضات الضوء أو الكهرباء، وهذه الومضات ليست متصلة ولا مستمرة، ولايمكن استدعاؤها وفقًا لإرادة الإنسان، لأنها إلهام مفاجئ لايرتبط بزمان ولامكان. وقد عرّف العقاد العبقرية بأنها «التفرد والسبق والابتكار[(١)]»، والإبداع يكون على غير مثال سابق، وليس اجترارًا ولا تكرارًا لأفكار سابقة.

ولست أبالغ ولا أجامل إذا قلت إن العبقرية قاسم مشترك بين كتابى جمال حمدان وكمال عرفات نبهان؛ فأولهما يقدم حقائق علم الجغرافيا على طبق من ذهب، وثانيهما يقدم حقائق علم المعلومات على نفس الطبق. العبقرية فى الكتاب الأول عبقرية مكان وعبقرية مؤلف، وفى الكتاب الثانى عبقرية فكر وإنتاج وعبقرية مؤلف أيضًا، فكلا المؤلفين يغوص فى الأعماق البعيدة لتخصصه، ويشرح لنا غوامضه، ويكشف لنا أسراره الدفينة، ويقدم لنا شيئا جديدًا لم يُسبق إأليه. ويتفق الكتابان فى أن كلا منهما يشدّك بدءًا من عنوانه، ولا تكاد تقرأ فيه حتى تجد نفسك منساقا وراء المؤلف واقعًا فى أسره، لا تستطيع أن تنفك عنه، بل لا تحب أن تنفك عنه لأنك تجد فيه الفكر العميق والبصيرة النافذة والرؤية المستيرة والأسلوب العذب الجميل. وصدق د. مصطفى الشكعة حين قال فى دراسته القيّمة التى قدم بها لكتاب نبهان[(٢)]: «إن هذا الجهد يمثل نجمًا جديدًا فى سماء المكتبات والمعلومات منهجًا ومحتوى وتحليلاً وتعمقًا وابتكارًا».

وقارئ هذا الكتاب سرعان ما يتبين أنه أمام باحث يجيد السباحة فى بحور التراث العربى، ويجيد فن الغوص إلى أعماق الأعماق، ويقفز إلى السطح فى رشاقة منقطعة

(١) عبقرية عمر. القاهرة : مكتبة دار نهضة مصر، ٢٠٠٢، ص ١٨ (مكتبة الأسرة).
(٢) ص ١٥م.

النظير ليقدم لنا دررًا نفسية استخرجها بمهارة فائقة وعرضها بطريقة تجلّيها وتوضح لنا أبعادها التى تخفى على كثير من المتعاملين مع التراث العربى. فهو يقدم لنا نماذج قديمة موغلة فى القدم، ويقرنها بنماذج حديثة مسرفة فى الحداثة. يخترق الزمان والمكان فى سهولة ويسر، يتنقل عبر العصور والأوطان مشرّقًا تارة ومغرّبًا أخرى، ويتحول من موضوع إلى موضوع، وفى كل موضوع تحسّ أنك أمام شيخ من شيوخه وعلَم من أعلامه البارزين. ولولا أن له جناحين قويين ما استطاع أن يحلّق بنا فى تلك الأجواء البعيدة، وأن يعبر بنا تلك المسافات الشاسعة، وأن يخوض بنا فى تلك المجالات الموضوعية الخصبة المتنوعة.

رجل تمثّل تراثنا العربى في كل عصوره، وفى مختلف بيئاته، وفى شتى مجالاته المعرفية، وأخرجه لنا عسلاً مصفّى سائغًا للشاربين، ومؤلف تميز بوضوح الرؤية وتحديد الهدف، فهو يعرف طريقه فلا يحيد عنه، ولا تتفرق به السبل ، ويُحكم السيطرة على أفكاره ويحتفظ بخيوطها كلها فى قبضته فلا يفلت شىء منها من بين أصابعه. ولذا نراه يحدد مجال كتابه فى نصاعة ووضوح لا لبس فيه فيقول(١):

«إن هذه الدراسة ليست تاريخًا للتأليف العربى، فذلك مجال آخر له طبيعته ومناهجه الخاصة، ولكن هذه الدراسة تُخضع بعض ظواهر التأليف كحالات للدراسة الاستقرائية من أجل الخروج بتصنيف لعلاقات من النصي، وتحديد خصائصه وتسمياته وآلياته، ووظائف كل نوع من أنواع تفارع النصوص أو علاقات النصوص مثل وظيفة التلخيص أو الاستدراك أو التذييل أو الشرح أو الهجوم أو التأييد ... إلخ».

ومن مقدمته للكتاب يتضح لنا أننا أمام مؤلف يعى تمامًا قيمة عمله، ويعرف بالضبط ما أضافه واستحدثه، فهو يعدد لنا المجالات الجديدة التى يتفرد الكتاب بتقديمها في موضوع التأليف فى نقاط محددة هى(٢):

- تعريف التأليف عمومًا والعربى خصوصًا، وتمييز أنواعه.
- تعريف المؤلف وبيان خصائصه فى الثقافة العربية والإسلامية.
- تعريف النص، وتمييز أشكاله المختلفة.
- طرح نظرية الببليوجرافيا التكوينية، وهى نظرية جديدة فى مضمونها وتسميتها.

(١) ص ١٨.
(٢) ص ٢٥م - ٢٦م.

- ابتكار إطار لتمثيل علاقات التأليف العربى أطلق عليه «ببليوجرام» وقسَّمه إلي سبعة أشكال هي: الببليوجرام الخطى، والمجتمع الإشعاعى، والتشجيري، وببليوجرام التفارع المتعدد، والببليوجرام المغلق، والببليوجرام المركب، وذلك بهدف تحليل علاقات التفارع للنصوص على نص أصلي، وابتكار مصطلحات جديدة لوصف وتسمية هذه العلاقات. وقد أمكن تحديد نحو ستين نوعًا من التأليف النصى وتحديد خصائص كل نوع وطبيعة الجهد العلمى فى تأليفه، ووظائفه الاتصالية العلمية، وعلاقاته من الأنواع الأخرى من التأليف النصى»[١].

- وضع مخطط زمنى لعلاقات النصوص أسماه «الببليوكرونوجوام» وهو أداة لتمثيل الامتداد الزمنى لتأثير النص فى مؤلفات تالية، أو لتمثيل المسافات الزمنية التى تفصل بين ظهور النص الأصلى والمؤلفات التى تفارعت عليه، ويقيس «مدى استمرار النص الأصلى والملؤفات التى تفارعت عليه، ويقيس «مدى استمرار النص الأصلى فى تحريكه لمؤلفات تابعة عليه أوتابعة لتوابعه»[٢].

- تحديد آليات التأليف العربى بدءًا من التأليف التميهيدى للنص، ومرورًا بتشغيل النص (مثل التلخيص والتهذيب)، وتحويله من نثر إلى شعر أو من العامية إلى الفصحى أو العكس، أو تطويعه لظروف ثقافية أو بيئية أخرى، ومصاحبته (ويقصد بها الشروح والتفاسير بأنواعها)، وخدمته بإعداد الكشافات والأطراف، ومحاورته (ويقصد بها الاختلاف معه ومناقضته)، ونمذجته بتوليد نص منه أو احتوائه فى نص آخر أو محاكاته والتأليف على مثاله.

- استقراء ظواهر هامة فى التأليف العربى مثل تكامل النصول وتواصله وتراكمها.

- استقراء بعض الخصائص السوسيولوجية للاتصال العلمى فى الحضارة العربية وانعكاس العلاقات الاجتماعية فى المجتمع العلمى على علاقات النصوص وأشكال التأليف والاتصال العلمي»[٣].

ولاينسى المؤلف أن يذكرنا بأن الكتاب «يحتوى على كثير من المصطلحات التى تمت صياغتها لتكون رصيدًا للببليوجرافى وعالم المعلومات والمخطوطات والنصوص ومؤرخ العلم وناقد الأدب ومجالات أخرى كثيرة، ومن ذلك: المجانسة، التدريج،

(١) ص ٢٦م.
(٢) ص ٧٨.
(٣) ص ٢٦م.

المعجمة، الموسعة، التزمين، النمذجة، المقايسة الببليوجرافية... إلخ، مع الحرص على البحث عن مقابل لها بالإنجليزية لوصل الحلقات بين الحضارات»(١).

وهكذا نرى أننا أمام كتاب فذّ لمؤلف فذّ فى زمن تقزمت فيه أكثر المؤلفات التى تخرجها المطابع، وأننا أمام مؤلف يحترم نفسه ويحترم قارئه، ويضع كل كلمة موضعها بلا تزيدٍّ أو تنقّص. وحسبه أنه عكف على عمله هذا سنوات طويلة ناهزت الثلاثين عامًا «وانتهت به إلى تقديم هذا الكتاب الفريد فى عالم المكتبات إلى المكتبة العربية» على حد تعبير الدكتور الشكعة فى دراسته القيّمة التى قدم بها الكتاب.

فالكتاب عصارة سنين طويلة من البحث والتأمل فى ظاهرة التأليف العربى منذ أقدم عصوره إلى الوقت الحاضر. ولو لم يكن فيه إلا ابتداع نظرية «الببليوجرافيا التكوينية» التى يصفها المؤلف بأنها «أشبه بعلم الأجنّة الذى يخلص الولاء للجنين (النص) حتى يخرج للحياة، ثم يمنحه الولاء مجددًا عندما يسهم فى نقل بعض الخصائص الوراثية للنص لأجيال تالية من جنسه»(٢). ويعرّفها بأنها «دراسة ظواهر التأليف» وأنها «علم عدم فصل ما وصلته المعرفة الإنسانية»(٣).

لو لم يكن فيه إلا هذه الإضافة لكفاه، ولكنه عززها بابتداع صيغ جديدة ونحت مصطلحات أدخلها اللغة العربية لأول مرة مثل الكرشنة والسرينة والعبرنة وتيىء النص وتفصيحه. وهذه المصطلحات وأمثالها تدل على المستوى المتميز للأداء اللغوى للمؤلف.

وثمة سمات أخرى فى الكتاب ينبغى أن توضع فى ميزان حسناته، منها هذا البناء المحكم لفصوله ومباحثه، وتلك اللغة الراقية التى نفتقدها كثيرًا فى هذه الأيام، ومنها هذاالعدد الضخم من المراجع التى بلغت ٢٤٢ مرجعًا عربيًا، ومنها أيضًا أن المؤلف بدأه بفهرسين؛ أحدهما مختصر والاخر مفصل، وختمه بثلاثة كشافات؛ أحدها للمصطلحات والموضوعات، والثانى لعناوين الكتب، والثالث للأعلام.. وهذه الكشافات لا تقتصر على متن الكتاب وإنما تشمل أيضًا مقدمته وتقديم الدكتور الشكعة له، كما تغطى الحواشى التى ذيلت بها الصفحات. وذلك جهد ضخم بذله المؤلف طواعية لأنه يدرك أهميته فى إبراز مخبوءات الكتاب وتيسير الاستفادة منه، وهو فى الوقت نفسه دليل على حرفية فائقة.

(١) ص ٢٦م.
(٢) ص ٤٦.
(٣) ص ٤٨.

ومن الملامح الملفتة فى الكتاب أيضًا هذا الإخراج الطباعى المتميز سواء فى الورق أو أنماط الطباعة، وهذه المراجعة الدقيقة التى خضع لها النص فقلَّت أخطاؤه الطباعية إلى حد كبير.

ورغم هذه السمات الإيجابية التي تحسب للكتاب، فإن الشباك الدقيقة التي نصبها المؤلف لاصطياد الأخطاء قد أفلتت منها هنات يسيرة أذكر منها أمرين:

أولهما: الاعتماد على مصادر ثانوية في بعض الأحيان، ومثال ذلك أنه في ص ١٠ ينقل تعريف الجرجاني للتدوين عن معجم للمصطلحات الأدبية وضعه مجدي وهبة، وأنه في ص ١٤ ينقل عن كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيد، ولكنه يرد النص إلى كتاب روزنتال، «مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى».

وثانيهما: وقوع بعض الأخطاء الطباعية هنا وهناك[١]. ومن حسن الحظ أن أغلبها يسهل على القارئ اكتشافه.

وبرغم هذه الهنات اليسيرة، يظل الكتاب عملاً بحثيًا قيّمًا، يتألق أحيانًا ويتوهج أحيانًا أخرى، ولكن روح الإبداع تسرى فى جميع فصوله وصفحاته التى قاربت الستمائة. ويكفى أن تقرأ الفصل الثالث الذى يحدد فيه المؤلف الإطار النظرى للبحث وأدوات وصف علاقات النصوص، أو الفصل الحادى عشر الخاص بهيكل تصنيف علاقات التأليف، أوالفصل الثانى عشر الذي ضمنه ملاحظات عامة حول التأليف النصى وسوسيولوجية الاتصال العلمى فى الحضارة العربية الإسلامية. يكفى أن تقرأ أيًا من تلك الفصول لتدرك عن يقين أنك أمام باحث أصيل تغوص قدمه فى أعماق التراث، وتمتد ذراعه فى الفضاء العريض وكأنه شجرة جميلة وارفة تنشر ظلها ويفوح عطرها وتتدلى منها ثمارها اليانعة. وذلك هو كمال عرفات نبهان الذى أصاب شيئًا غير قليل من اسمه الثلاثى هذا : الكمال والمعرفة والنباهة.

---

(١) لعل أبرزها سقوط كلمة (الفرقان) فى ختام التعريف بالمؤلف، المذكور على غلاف الكتاب، حيث وردت عبارة (بمؤسسة فى لندن) وصوابها (بمؤسسة الفرقان فى لندن). ومن أمثلتها أيضًا: كلمة (تعريفا) ص ١٦ م سطر ٩ من أسفل وصحتها (تعريفه). وتصنيف) ص ٢٥ م سطر ٦ من أسفل وصحتها (وتضيف) و (Billiometrics) ص ٢٢ سطر ١١ وصحتها (Bibliometrics) . و (ص ٦٦) فى هامش ص ٦٥ وصحتها (ص ٦٧).